

## د. مرهف المسقا

يقصد بالتفسير العلمي: بيان معاني القرآن الكريم باستناد مختلف العلوم الكونية والنفسية والعقلية، أو بتوظيف العلوم المتطبقة والمبحثية والمعارف التجريبية الصحيحة بقدر الطاقة البشرية وفق المقواعد المشرعية المقررة<sup>١</sup>، والمراد من هذا المقال وما سيأتي من بعده من مقالات - إن شاء الله - بيان الأصل الشرعي والتاريخي لما نسميه اليوم (التفسير العلمي للقرآن الكريم) بهذا المعنى الاصطلاحي السابق، ونفيأ لتهمة بعض المتفاهمين لمن يشتغل بهذا الاتجاه بالتفسير والضلال والتبديع، وتوجيهها لمن يشتغل بالتفسير العلمي إلى ضبط عملهم التفسيري في إطار هذا التعريف، وفي ضوء منهج الأئمة المعتبرين.

لما يخفي حال العرب عند بدء نزول القرآن، وما يحملونه من معتقدات الجاهلية وتصوراتها ومفاهيمها الخرافية المخالفة للفطرة والعقل والحقيقة.. والتي تسرب معظمها عن طريق الماحتكاك بالروم والمغرس وتلاقح العقول ببعضها، وتلقيف العرب لعلوم الروم وفارس خاصة عن خلق الإنسان ونشأة المكون وغير ذلك، ومع ذلك فلم يبرع العرب إبان نزول القرآن وقبله إلى ما في ثلاثة أنواع من العلم: علم الأنساب وعلم المرؤيا وعلم المآذناء أو النجوم، وكانت براعتهم بالأنواع قاصرة على العراقة والاسترشاد في الجهات، وأما المطب فلم يبرعوا فيه، بل كان غالبيهم يعتمد على التمام والمرقى والتنجيم<sup>٢</sup>.

والواقع أن طبيعة الحياة في المجتمع العربي قبل الإسلام كانت هي التي توجه العرب إلى العلوم التي تحتاجها هذه الحياة، فبراعتهم بالأنساب لأنها من ضروريات العصبية القبلية، ومعرفتهم بأنواع الكواكب ومطالع النجوم والمقمري.. وما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة؛ لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على سبيل طريق تعلم الحقائق، ولما على سبيل المتدرب في العلوم<sup>٣</sup>.

فنزل القرآن والحاله هذه لينقل الناس من هذه التصورات الخرافية التي لا تتوافق مع الحقائق التي خلقها الله، ليهديهم إلى المجادة المستقيمة ويصحح لهم التصورات المنحرفة عن الإنسان والمكون والحياة، ويعيد الفطرة التي انحرفت هذه التصورات إلى أصلها وصفائها، وبينقلهم من مرحلة المتابعة لغيرهم في العلوم والنظم، ولآباءهم في العادات والمعتقدات، إلى سدة الاستقلال بالعلوم والعقيدة والأخلاق، ليكونوا أصحاب حضارة مميزة.

فكانت الآيات المكية تنزل متضمنة ذكر الإنسان وما يتعلق بخلقه وأطواره وكرامته، والمكون ونشأته، والخلقية من بدئها وفزيتها ومآلها، والحياة في معناها وحققتها والغاية منها، والأرض وما فيها من ثبات وترابة وقطع متاجرات.. وغير ذلك من الدواب والمخلوقات؛ بأسلوب يأمر العقل بالحركة والتحرر من المتابعة والجاهلية وتقليد الآباء وموروثاتهم، وكانت هذه الحقائق التي يذكرها الله تعالى في كتابه تتمكن من قلوب وعقول المسلمين عقيدة وفهمًا لتوسيع مداركهم وتعزز إيمانهم في تعظيم الله وتوحيده.

إن علم التفسير نشأ المرسالة الإسلامية، وببدأ ببدء نزول القرآن على النبي ﷺ عليه وسلم فكانت الآيات المنزلة من عند الله تتفق مدارك العقل عند سامعيها العاقلين وكان المرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم يفسر للصحابة ما أشكل عليهم في فهم القرآن الكريم وما أحمل من هذه الآيات، ويعلمهم منهج استنباط المعارف القرآنية واستخراج الدر المكنون من علوم القرآن، وكان المصدر في ذلك الوحي من عند الله الذي لا يأطيه المباطل من بين يديه ولما من خلفه. عن مالك بن الحويرث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أراد الله أن يخلق النسمة فجامعت الرجل المرأة، طار ما في كل عرق وعصب منها فإذا كان يوم السابع، أحضر الله كل عرق بينه وبين آدم، ثم قرأ: «الانتظار»<sup>٤</sup>)

بل كانت سنة النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم للأيات المتتحدثة عن مظاهر المكون والإنسان، وكانت المصدر الأول للصحابة - رضي الله عنهم - في فهم القرآن الكريم، والمطلع على كتب التفسير بالمأثور يجد الأمثلة في ذلك كثيرة<sup>٥</sup>.

ثم كان السلف الصالح - رضي الله عنهم - من الصحابة والتابعين وتابعيهم يحثون على استنباط العلوم من القرآن الكريم، وتدرس آياته ومعرفة أوجه معاني ودلائل القرآن المرشدة لعلوته استناداً إلى أن هذا الكتاب المنزل من خالق كل شيء ما فرط في ذكر شيء مما خلقه تصريحاً أو تلويناً أو استدالاً بمنهجه وأسلوب يسير بالإنسان في دروب المهدية والرشد، قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يُطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

(الأنعام: 38)

()، ويقول ابن مسعود - رضي الله عنه - ( من أراد علم الأولين والآخرين فليتibir القرآن )

وبقول مسروق - رحمه الله: ( من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة )

). وذكر المسيوطى فى الاتقان أن ابن سراقة نقل فى إعجاز القرآن عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً: ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله، فقيل له: فأين ذكر الخاتمة؟ فقال: في قوله تعالى: (لَيْسَ عِلْيُكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بِي وَتَأْغِيرُ مَسْكُونَةً فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ<sup>29</sup>)<sup>8</sup>

). إن المطلع على تفسير السلف الصالح - رضي الله عنهم - يجد فيه العجائب من استبطاطهم لأنواع من العلوم صار لها تخصصات وفروع في زمننا بل منها علوم تقوم لها الدنيا وتتعقد وهي تتحدث عنها ونحن كنا نمر عليها مرور الكرام عند قراءتها، وهذا المؤفيق الذي وفقه السلف لم يكن من فراغ وإنما لإخلاصهم في البحث عن مراد الله تعالى وحرصهم على سلامة المنهج في دراسة القرآن المكري وتدارك آياته، إذ المصدر الذي عولوا عليه في ذلك هو تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، هذا مع معرفتهم باللغة العربية وأسائليب العرب في الكلام وتقليل أوجه المدلادات اللغوية، إضافة لسعة المدارك الإيمانية ومعرفتهم ل السنن للله تعالى في الكون والمقرآن.

لقد وفق السلف الصالح من المفسرين كثيراً في شرحهم لمعنى الآيات مع أن حقائقها الكونية كانت محتاجة، ومعلوم أن المفسر الذي يصف حقائق وكيفيات الآيات الكونية في الآفاق والأنسوف وهي محجوبة عن المرؤية في عصره قياساً على ما يرى من المخلوقات وفي ضوء ما سمع من الوحي، يختلف عن المفسر الذي كشفت أمامه الآية الكونية، فجمع ما سمع من الوحي وبين ما شاهد في الواقع<sup>9</sup>)

ففي تفسير قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لِحَمَّا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحَسْنَ الْخَالقِينَ<sup>10</sup>)  
المؤمنون: 14-12)، فقد تقلل إلينا من أقوال السلف - رضي الله عنهم - الآتي: عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: (السلالة: صفو الماء الرقيق الذي يكون منه المولد<sup>11</sup>)

)، ويقول - رحمة الله - في تفسير المشاة الأخرى للخلق: (خرج من بطنه أممه بعدد خلقه الآخر أن استهل، ثم كان من خلقه أن دله على ثدي أممه، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجله إلى أن قعد إلى أن جبا إلى أن قام على رجله إلى أن مشى إلى أن فطم، تعلم كيف يشرب وينأكل من الطعام إلى أن بلغ الحلم إلى أن يتقلب في البلاد<sup>12</sup>)

وعن مجاهد في تفسير السلالات قال: ( هو الطين إذا قبضت عليه خرج ماؤه من بين أصابعك<sup>13</sup>)

وعن عكرمة قال: ( استل استلاماً<sup>14</sup>)

ولم يمنعهم ما ورد عن النبي ﷺ من السنة في تفسير هذه الآيات من ذكر معانٍ أخرى يحتملها نظم القرآن ولما يخرج عن مقتضى السنة وأصول اللغة ولا يصادها، فقد مر من قبل ما ورد عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: (فَرِي أَيِّ صُورَةَ مَا شَاءَ رَكِبَكَ<sup>15</sup>)  
(الانتظار: 8)، وقد أشار عن السلف الصالح معانٍ أخرى من ذلك ما ورد عن مجاهد أنه قال: (اما قبيحا واما حسنة، وشبها باب او ام او خال او عم<sup>16</sup>)

وعن عكرمة قال: ( إن شاء في صورة قرب و إن شاء في صورة خنزير<sup>17</sup>)

ومن الأمثلة أيضاً ما ورد في تفسير قوله تعالى: (وَإِنْ مَنْ شَاءَ إِلَّا عَنِّدَنَّا خَزَائِنَهُ وَمَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ) (الحجر: 21)  
يقول ابن عباس: (ما تقص المطر من ذاته الله، ولكن تمطر الأرض أكثر مما تقطنها<sup>18</sup>)  
ثم قرأ هذه الآية<sup>19</sup>)  
(، ومثل ذلك ورد عن ابن مسعود<sup>20</sup>)  
والحسن<sup>21</sup>)

وبقول الحكم بن عتبة - رضي الله عنه -: ( ما من عام باكثر مطرًا من عام ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون، وربما كان في البحر<sup>22</sup>)

ويكذا فالأمثلة على ذلك كثيرة وكتب التفسير بالمؤشر - كما ذكرت سابقاً - غنية بالأمثلة، وإنك تتجد في بعض ما أوردته من المؤثر من التفسير أصبح أقرب للثوابت العلمية في وقتنا كإحصاء هطول الأمطار مع تعقد آلية إحصائها<sup>23</sup>)  
(، هذا مع عدم وجود فكرة إحصاء هطول الأمطار في يال أحد من الأمم في عصرهم ولما يملكون المدرائية التجريبية لها.  
الهوامش:<sup>24</sup>)

<sup>1</sup>) <sup>2</sup> منهج التفسير العلمي وتطبيقاته في سورة النحل، مرهف سقا ص 39 رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة ألم درمان، بإشراف الأستاذ

الدكتور نور الدين عتر.

- <sup>٢</sup>) انظر تفصيل حالاً لعلوم عند العرب قبل الإسلام وصدره: الملل والمنحل للشهرستاني 3/83 إلى 89 ط مصر، وما كتبه محمد فؤاد المأكري في مقدمة دراسته لكتاب: (في بيان الحاجة إلى المطب والأنطاء ووصاياته
- <sup>٣</sup>) للعلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ت 710هـ من ص 12 إلى ص 38، فقد أعطى نظرة تاريخية للطب وعلومه في الماجاهيلية والإسلام، ط الإمارات الأولى.
- <sup>٤</sup>) انظر: الاتجاهات المفكربة في التفسير د. المشحات السيد زغلول ص 107 إلى ص 109، ط الهيئة المصرية العامة، ثانية 1397، 1977.
- <sup>٥</sup>) أخرجه الحكيم المترمذ والمطبراني وأبن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات بإسناد جيد كما قال المسوسي في الدر المنشور 6/630، مطبعة الأنوار مصر، ومما يدخل في معنى حديث مالك بن الحويرث أيضاً أخرجه ابن جرير 30/56 ط الميمنية، والبخاري في المتاريخ وأبن المنذر وأبن شاهين وأبن قانع والمطبراني وأبن مردويه كما في الدر المنشور للمسوسي 6/359 عن علي بن رباح عن أبيه أن النبي ﷺ قال له: ما ولد لك؟ قال: يا رسول الله! ما عسى أن يولد لي إما غلام وإما جارية؟ قال: فمن يشبهه؟ قال: يا رسول الله من عسى أن يشبه إما أبوه وإما أمه!! فقال النبي ﷺ عندها: مه؛ لا تقولن هذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم، فركب خلقه في صورة من تلك الصور، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله (في أي صوره شاء ربك) (الافتخار: <sup>٦</sup>)
- <sup>٦</sup>) قال: سلوكه وفي رواية: (من نسلك ما بينك وبين آدم
- <sup>٧</sup>) قال: نعم، قال: (فما لونها؟
- <sup>٨</sup>) قال: حمر، قال: فهل فيها من أورقة، قال: نعم؛ قال: فأنت أنتها ذلك؟، قال: عسى أن يكون ذرعة عرق؟ قال: ( وهذا عسٰى أن يكون ذرعة عرق ) وهذا الحديث يمكننا اعتباره من شواهد معنى الحديث السابق وحديث مالك بن الحويرث. والله أعلم.
- <sup>٩</sup>) انظر مثلاً تفسير الآية 11 من سورة الحج في الدر المنشور للمسوسي 4/378، وكذلك انظر كتاب هدي القرآن الكريم إلى معرفة العالم والتفكير في الأكوان للمفسر الشيخ عبدالله سراج الدين - رحمة الله - فإنه اعتبره من أنفس كتب التفسير التي ينطبق عليها مصطلح (التفسير العلمي)
- <sup>١٠</sup>) واتبع فيه المؤلف - رحمة الله - منهجاً منضبطاً يمكن اعتباره ذادرة بين كتب التفسير في موضوعه والله أعلى ويصلح أن يكون هذا الكتاب مثلاً للتفسير العلمي عند السالف الصالح أيضاً الذي سنتحدث عنه.
- <sup>١١</sup>) أخرجه سعيد بن منصور كما في الإتقان 2/226 ط دار الفكر بيروت.
- <sup>١٢</sup>) أخرجه ابن أبي شيبة في المنصف 7/148 تحقيق كمال يوسف المحوت ط مكتبة المرشد المريال أولى 1409، وذكره المذهبي في سير أعلام المنباء 4/68 ط الم رسالة 1413هـ.
- <sup>١٣</sup>) أخرجه ابن جرير 2/126.
- <sup>١٤</sup>) انظر: قواعد وأسس أبحاث الإعجاز العلمي على موقع هيئة الإعجاز العلمي.
- <sup>١٥</sup>) أخرجه ابن جرير 20/73 تحقيق أحمد شاكر ط الم رسالة أولى، وأبن المنذر وأبن أبي حاتم انظر الدر المنشور 5/7.
- <sup>١٦</sup>) أخرجه ابن جرير 19/18 ط الم رسالة.
- <sup>١٧</sup>) أخرجه عبد بن حميد وأبن المنذر وأبن أبي حاتم كما في الدر المنشور 5/7.
- <sup>١٨</sup>) أخرجه عبد بن حميد وأبن المنذر وأبن أبي حاتم كما في الدر المنشور 5/7.
- <sup>١٩</sup>) ابن جرير 30/55، وعبد ابن حميد وأبن المنذر كما في الدر المنشور 6/360.
- <sup>٢٠</sup>) ابن جرير 30/56، وعبد ابن حميد كما في الدر المنشور 6/360.
- <sup>٢١</sup>) أخرجه ابن المنذر وأبن أبي حاتم انظر الدر المنشور 4/107.

- <sup>17</sup>) أخرجه ابن جرير 14/13 و 14، والخراطي في مكارم الأخلاق ص 103 رقم 486).
- <sup>18</sup>) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر المنشور 1/40.
- <sup>19</sup>) أخرجه ابن جرير 14/14، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة كما في الدر المنشور 4/107.
- <sup>20</sup>) انظر كتاب: المرکام المزنی والمظواهر الجوية في القرآن المکریم من ص 205، إلى ص 212، تأليف صلاح الدين عارف جنید تقديم جودت سعید وبسام مهمندار، المخبر في المنظمة العالمية للأرصاد الجوية ط مطبعة المزرعی في دمشق أولی 1999.